الثورة العربية ونتائجها

في أقوام شبه الجزيرة

لكاتب شرقي كبير

كتبت خصيصاً لمجلة المعرفة

يهجس في خواطر الناس سؤال لمناسبة استئثار رحمة الله بالملك حسين الملقب «بأبي الثورة» وهو: هل استفادت بلاد العرب من الثورة التي أضرم الحسين نارها وأذكى أوارها، وهل حققت تلك الرغائب القوية التي دارت في الاخلاد وساقت إلى الحرب مواكب الشبان المتعلمين كل مساق؟

والواقع أنه سؤال لا تعجز الاجابة عليه احداً، ولو بدا للبعض غير ذلك في الظاهر فأن أرباب النظريات القومية قلما يتأثرون بالنتائج المستعجلة، حسنة كانت أم سيئة، فيتخذونها مقياس المصير الدائم المستقر. فالمبدأ الراهن عندهم هو أن النصر لمن كسب المعركة الاخيرة، وأن الفكرات الثابتة هي التي يكتب لها الاستقرار في مؤتنف الايام أو السنين، ولا عبرة بالنتائج العاجلة التي تقترن بالحادثات الجسام فور انتهائها، إن سلبية وإن ايجابية، فقد يستقر في حين من الاحيان مبدأ فاسد فما يلبث ان تتزلزل منه الاركان وقد يضطرب في فترة من الفترات مبدأ صالح فيبدو مزعزع القوائم منهار الاساس ثم لا يعتم أن تنجلي العواصف المطبقة به فاذا هو بنيان شامخ الذرى متين الوطائد. فالمقياس إذن هو صلاح الفكرة أو فسادها، وعليها وحدها تتوقف المصائر والاعقاب

فالثورة العربية قد اختتمت بعواقب غير متجانسة مع الاغراض المقصودة منها، وهو أمر لا سبيل الى نكرانه، مادامت الجوائح التي قطعت أوصال بلاد العرب ماثلة للانظار، تذكرنا بالنكس الاليم الذي اصيبت به بلاد قامت قومة واحدة لتحطم الاغلال فما كادت تستروح نسمة الحرية حتى منيت بقيود زادتها أثقالا على اثقال

في مثل هذه الحال لا يمكن أن يقال إن الثورة العربية أعقبت فوائد سياسية. ومن قال بذلك فقد ضل النهج السوي، وحز في غير مفصل. الا أننا لا نخطيء الصواب اذا قلنا إن الثورة أتت بفوائد قومية وأدبية غزيرة، فقد ساعدت على الاسراع في انتشار التطور

فى الافكار ، وكانت منه في البلاد العربية أثارة ، وفى الاذهان علامة ، ولكن في طبقة خاصة من الطبقات المستنيرة فحسب ، ولما جاءت الثورة بحماستها وملابساتها أوصلت الفكرة القومية الى بقية الطبقات المتعلمة ثم الي طبقات الدهماء من سكان الحواضر ثم الي سكان البوادي التيهاء ، وكان الروح القومى اذ ذاك يتزجرج فى صدورهم كالزئبق الرجراج وكان مفتقرا الى ماينميه ويقويه والى صدمة عنيفة تخرجه من طوره الغامض الى طور الظهور ، اذ ليس كالصدمات الحادة مظهرا خفايا الحادثات الغامضة ، مخرجا أجنتها من أحشاء الفكر المستترة ، والثورة العربية لم تكن كل الصدمة إلا بعد أن اقترنت بتطورات الحرب الكبرى التى حملت الى شعوب الارض مبادىء جديدة وافكارا لاعهد للمجتمعات الشرقية بها من قبل . فلما وصلت هذه المبادىء والافكار الي العرب عن طريق الثورة العربية كانت أشد انطباعاً فى النفوس وابلغ التصاقا بالاذهان اذ تقبلتها دون ماتردد واقبلت على اعتناقها بغير احتراز أواعتراض

لذلك ، كانت الثورة العربية ذراع الحرب الكونية التي بذرت مبادىء جديدة فى بلاد العرب ، بل كانت « المكرفون المكبر للصوت » الذى أوصل الصدى الداوى الى مسامع الخاصة والعامة والبدو والحضر من سكان شبه الجزيرة العربية قاصيها ودانيها

ومادام الاستطراد قد جرنا الى بحث العوامل التى أيقظت الشعور القومى فى كل آسيا العربية فمن الحق أن نذكر أن صدمة عنيفة أخرى قد سبقت الثورة الى تهيئة الافكار وتمهيد السبيل لقبول فكرة الاستقلال وهى يقظة الروح القومى في الترك أنفسهم فقد كانت عناصر الدولة العثمانية تعيش تحت لواء « العثمانية » يشعر كل عنصر فيها ان له حقوقا مثل حقوق شركائه وعليه واجبات مثل الواجبات التى عليهم فلما انقدت جمرة (القومية) في الترك ، تلظت القومية فى العرب ، وصاحت هاأنا ذى !

كانت إذن ثلاث صدمات لاختمار القومية العربية فى الاذهان : صدمة الثورة ، وصدمة انتشار مبادىء الحرب ، وصدمة الشعور القومى فى الترك . ثم جاءت الصدمة الرابعة فجللتهن بالحادث الجلل ، وهى مطامع الدول ، ومانشأ عنها من أضرار تناولت مرافق المجموع ومرافق الافراد ، ويصعب الحكم الآن على أية تلك العوامل كانت صاحبة التفوق بأخراج فكرة الثورة الى حيز العمل ، وأيتها أقوى مساعدة على انتشار مبادئها وذيوع فكرتها فى الجماهير .

فالمجموع العربي على التحقيق لم يربح سياسياً من الثورة التى رفع الحسين بن على علمها فى آفاق الجزيرة ، والتي حصد منجلها الحاطم آلاف النفوس من شبان العرب المتعلمين

وساق منهم من ساق الى المنافى والسجون . ولـكن الذى ربح هو « القومية العربية » كفكرة ، لا كحركة . ومع ذلك فقد انتقلت من حيز الفكرة الى حيز الحركة وكتب لها الذيوع والانتشار

أما نتائجها البارزة كحركة ، فقد لمسها المتصلون بهـا من رجال الغرب ، مستعمرين ومستشرقين ، حتى اضحوا يحسبون حسابها ومنهم من ينصح الآن باجتناب مقاومتها ومسايرة تطورها وأسبابها ، وللسياسيين فى ذلك أقوال كثيرة تبرهن على أنهم أمسوا يحفلون بالقومية العربية كحركة لم يعد في الامكان صد تيارها بالحوائل والسدود . وهذا هو أول علائم الربح السياسى . أما ربحها المنتظر فهو أكيد الحصول ، ولابد ممـا ليس منه بد ، فقد تعلق الامر بمشيئة عشرات الملايين من سكان الشام والعراق واليمن والحجاز مضافاً الى تفاعيل اليقظة التى عمت مصر ومراكش والجزائر وغيرها من البلدان العربية واذا نظرنا الي هـذه المنظومة العربية التي تؤلف سبعين مليونا وألقينا نظرة أخرى الى موجة التطور التى غمرت هذه الملايين أيقنا ان المصير مصير حسن ، وعرفنا ان للثورات الفكرية حكمها فى اثبات هذا المصير .

نحن وقانون المطبوعات الجديد

توالت علينا الرسائل من حضرات أصـدقائنا المخلصين وبعض قراء مجلتنا الاعزاء ، مستفسرين عما سنعمله بازاء القانون الجديد الذى يحتم علينا دفع تأمين نقدى قدره مائة وخمسين جنيهاً مصرياً .

ونحن نشكر لحضراتهم هذه العاطفة النبيلة ونؤكد لهم بأنا مادمنا نسلك طريق الحق والرشاد فلن نعدم بحول الله وقوته سبيلا يوصلنا إلى هذه الغاية

على أن لنا فى أريحية حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة الاشتراك ، ما يجعلنا نكتفى بهـذه الاشارة دون التصريح ، وكلنـا أمل فى أن يتفضلوا بارسالها ، فان البحار تتكون من القطرات ، ومن اللبنات توجد القصور والعمارات. هذا واننا لن ندخر وسعا ان شاء الله فى سـبيل رفع المجلة وترقيتها والعمل على تحسينها وفقنا الله الى ما فيه رضاه فهو حسبنا ونعم الوكيل .